مفاهيم إسلامية

إنتاج المستشرقين

وأثره في الفكر الإسلامي الحديث

مالك بن نبي

دار الإرشاد
للطباعة والنشر والتوزيع

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٩ م

مفاهيم إسلامية

إنتاج المستشرقين

وأثره في الفكر الإسلامي الحديث

مالك بن نبي

دار الإرشاد
للطباعة والنشر والتوزيع
ص.ب ٦٣٤٧ - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

يجب أولاً أن نحدد المصطلح : اننا نعني بالمستشرقين الكتاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الاسلامية .

ثم علينا ان نصنف اسماءهم في شبه ما يسمى « طبقات » على صنفين :

ا — من حيث الزمن : طبقة القدماء مثل جربر دورياك والقديس توماس الاكويني وطبقة المحدثين مثل كاره دوقو وجولدتسهير .

ب — من حيث الاتجاه العام نحو الإسلام والمسلمين لكتابتهم : فهناك طبقة المادحين للحضارة الاسلامية وطبقة المنتقدين لها المشوهين لسمعتها .

هكذا وعلى الترتيب يجب أن تقوم كــل دراسة شاملة لموضوع الاستشراق ، الا اننــا ، من الوجهة الاجتماعية الخاصة التي تهمنا في هذا البحث وفي النطاق الضيق المحدد لهذه السطور ، نختار عن قصد فصلاً خاصاً ، اختياراً تبرره مبررات إلغائنا للفصول الأخرى .

إنه لمن الواضح أن المستشرقين القدماء أثروا وربما لا يزالون يؤثرون على مجرى الأفكار في العالم الغربي دون أيما تأثير على أفكارنا ، نحن معشر المسلمين ، ان ما كتبوا كان قطعاً المحور الذي تحركت حوله الأفكار التي نشأت عنها حركة النهضة في أوروبا ، بينما لا نرى لهم أي أثر فيما نسميه النهضة الإسلامية اليوم . فلنترك إذاً قضيتهم جانباً لمن تهمه دراسة التاريخ العام كما نترك أيضاً قضية المنتقدين على الحضارة الإسلامية المحدثين حتى ولو كان لهــم بعض الأثر في تحريك أقلامنا أو كان لهم بعض الصيت في زمنهم وبلادهم مثلاً الأب لامانس ، انهم لا يدخلون في موضوع بحثنا لأن انتاجهم ، على فرض انه مس ثقافتنا الى حد ما ، إلا أنه لم يحرك ولم يوجه بصورة شاملة مجموعة أفكارنا ، لما كان في نفوسنا من استعداد لمواجهة أثره تلقائياً ، مواجهة تدخلت فيها عوامل الدفــاع الفطرية عن الكيان الثقافي ، كما وقع ذلك في العهد الذي نشر فيه طه حسين كتابه في الشعر « الجاهلي » على غرار

ما تقتضيه مسلمة قدمها المستشرق مرجليوث قبل سنة من صدور كتاب طه حسين الذي اثار تلك الزوبعة من السخط التي تخللتها الصواعق المنطلقة من قلم مصطفى صادق الرافعي رحمه الله وأكرم مثواه.

ولكننا على عكس ذلك نجد للمستشرقين المادحين الأثر الملموس الذي يمكننا تصوره بقدر ما ندرك انه لم يجد في نفوسنا أي استعداد لرد الفعل حيث لم يكن هناك، في بادىء الأمر، مبرر للدفاع الذي فقد جدواه وكأنما أصبح جهازه معطلاً لهذا السبب في نفوسنا.

وموضوعنا هنا، هو أن نبين ما كان لهذه الثغرة في جهازنا للدفاع عن الكيان الثقافي، من أثر في تطور أفكار المجتمع الاسلامي منذ قرن، وأثناء هذا القرن العشرين على وجه الخصوص.

ولا شك أن المستشرقين المادحين مثل رينو الذي ترجم جغرافية أبي الفداء في أواسط القرن الماضي ومثل دوزي الذي بعث قلمه قرون الأنوار العربية في إسبانيا ومثل سيديو الذي جاهد جهاد الأبطال طول حياته من أجل أن يحقق للفلكي والمهندس العربي أبي الوفاء لقب المكتشف لما يسمى في علم الهيأة «القاعدة الثانية لحركة القمر» ومثل آسين

بلاثيوس الـذي كشف عـن المصادر العربية للكوميدية الإلهية ، لاشك أن هؤلاء العلماء كتبوا لنصرة الحقيقة العلمية ، وللتاريخ ، وكل ذلك من أجل مجتمعهم الغربي .

ولكننا نجد أن أفكارهم كان لها وقع أكبر في المجتمع الإسلامي ، في طبقاته المثقفة .

إن الجيل المسلم الذي أنتسب اليه يدين الى هؤلاء المستشرقين الغربيين بالوسيلة التي كانت بين يديـه لمواجهة مركب النقص الذي اعترى الضمير الإسلامي أمـام ظاهرة الحضارة الغربية .

ولكننا إذا تصفحنا هذه القضية في ضوء خبرتنا الحديثة وفي ضوء تجاربنا القريبة نجـد أن هذه الوسيلة لم تقتصر نتائجها على الأثر المحمود في تطور أفكارنا وثقافتنا ، بل كان لها أثر مرضي هو الذي نريد طرحه كموضوع البحث في هذه السطور .

فلكي نتصور هذا الأثر على صورته الحقيقية في مجتمعنا الإسلامي ، يجب أن نعيد هذا النوع مـن الاستشراق الى مصادره التاريخية .

إن أوروبا اكتشفت الفكر الإسلامي في مرحلتين من تاريخها فكانت في مرحلة القرون الوسطى ، قبل وبعد طوماس الأكويني ، تريد اكتشاف هذا الفكر

وترجمته من أجل اثراء ثقافتها بالطريقة التي أتاحت لها فعلاً تلك الخطوات الموفقة التي هدتها الى حركة النهضة منذ أواخر القرن الخامس عشر.

وفي المرحلة العصرية والاستعمارية فإنها تكتشف الفكر الاسلامي مرة أخرى لا من أجل تعديل ثقافي بل من أجل تعديل سياسي، لوضع خططها السياسية مطابقة لما تقتضيه الأوضاع في البلاد الإسلامية من ناحية، ولتسيير هذه الأوضاع طبق ما تقتضيه هذه السياسات في البلاد الإسلامية لتسيطر على الشعوب الخاضعة فيها لسلطانها وربما انطبقت هذه المجهودات العلمية، في نفس أصحابها، على مجرد الإعتراف بفضل تلك الشعوب وبمساهمتها في تكوين الرصيد الحضاري الإنساني، ولا شك أن المستشرق سيديو والعلامة غسطاف لوبون يتسمان في انتاجهما بميزة العلم الخالص والاجتهاد المخلص للحقيقة العلمية.

ولكن تجب هنا الملاحظة بأن هذا اللقاء الجديد وقع في ملابسات تاريخية لم يكن فيها العلم الاسلامي علماً حياً ينقل من أفواه الأساتذة مباشرة ومن كتبهم المعاصرة بل أصبح أشبه شيء بعلم الآثار يكتشفه الباحثون الأوروبيون بحكم الصدفة ويصدقون أولا يصدقون في نقله، ثم ينسبونه لأصحابه من العلماء